

مقال: منهج النقد التاريخي عند الطبري

مقدمة:

يعد المنهج التاريخي أكثر المناهج المعتمدة ، بالنظر إلى صلاحيته في تتبع الظواهر الكبرى ودراسة تطورها. إذ يتخذ من حوادث التاريخ السياسي والاجتماعي وسيلة لتفسير هذه الظواهر المرتبطة بالمجتمع، ما جعل علماء الاجتماع والباحثين والنقاد، يعتمدونه في بحوثهم.

الإمام الطبري من القمم الشامخة في تاريخ العلوم الإسلامية، فقد نبغ في مجالات متعددة منها: التفسير والحديث والفقه والتاريخ، وكانت كتبه في هذه المجالات أساساً ومرجعاً لمن جاء بعده. وسوف نتناول الحديث عنه في مبحثين: نعرّف في الأول منهما بحياته وشخصيته ومكانته ومؤلفاته. ونبيّن في الثاني منهجه.

المبحث الأول: الطبري: حياته، شخصيته، مكانته، مؤلفاته

المطلب الأول: نشأة الطبري وصفاته

ولد الطبري في عام 224 هـ في مدينة أمل في منطقة طبرستان، تميز الطبري بذكائه ونشاطه وبحثه عن الحقائق، واشتهر بفطنته ونباهته. اهتم والد الطبري إلى توجيهه للتعلم وحفظ القرآن الكريم، حيث رأى والده أن الطبري ابنه في الحلم جالساً بين يدي رسول الله عليه الصلاة والسلام ويتعلم القرآن ويحمل سلة بها حجارة. وكانت هذه الرؤيا لها أثر كبير في نفسه، حيث قال عنها أحد المفسرين إن معناها أن ابنه سيكون متفقهً في أمور الدين، ويكون ذا مكانة وشأن بين الناس. كان والد الطبري يقول هذه الرؤيا لابنه كل يوم وبشكل دائم، لكي يكون متحمس ونشط في طلب العلم. والد الطبري كان يحرص على تشجيعه لكي يكون عالم ورائع في الآداب وفي العلوم، وكان يبذل الكثير من المال على يد أفضل الشيوخ والمعلمين.

حفظ الطبري القرآن الكريم وهو في عمر السابعة، وكتب الحديث في التاسعة.

الطبري شخص عرف بزهده وحذره من الحرام، فكان يحب الحذر والبعد عن الشبهات والمحرمات. كان الطبري يعناش من المحاصيل التي كان يزرعها، فكان يأكل القليل وهو غير مهتم بزينة الدنيا. لم يكن الطبري يحب الزينة والمفاخر، وكان لا يقبل الهدايا أو العطايا التي تقدم من الحكام، كان الطبري لا يخشى في الحق لومة لائم. كان الطبري صائناً لسانه لا يتكلم على أحد ولا يغتاب ولا يورد السيئة، فقد عرف عنه أنه عفيف النفس حتى وإن ضاقت به الدنيا. كان الطبري متواضعاً يجيب الناس ولا يوجه إليه من الناس أي دعوة أو طلب الا وكان يلبيه، كما كان متسامح وشجاع.

محنة الطبري مع الحنابلة في العصر الذي عاش في الطبري انتشرت حالة من التعصب المذهبي خاصة في العراق، كان الحنابلة هم أصحاب الرأي في الوقت هذا. حدث الكثير من المشاحنات والمشاكل بين الحنابلة والطبري، وبين ابن داوود، اتهم الحنابلة الطبري بالتشيع، ومنع من إلقاء الخطب وبقي محاصر في بيته.

المطلب الثاني: مؤلفاته

كان الطبري من أكثر الناس تأليفاً، فقد قسم بعض تلاميذه أوراق مصنّفاته على عدد أيام حياته، منذ بلوغه إلى أن تُوفي وهو ابن ست وثمانين، فكان لكلّ يوم أربع عشرة ورقة. وحكى الخطيب عن بعض تلاميذه أنه كان مكث أربعين سنة يكتب في كلّ يوم منها أربعين ورقة . ومن مؤلفاته:

1- تفسيره جامع البيان عن تأويل أي القرآن. 2- تاريخ الرسل والملوك، وهو أهمّ كتب التاريخ.

3- تهذيب الآثار: وهو من عجائب كتبه، تكلم فيه عن علل الحديث، وطرقه، ومعانيه، وغريبه، وفقهه، واختلاف العلماء فيه. وقد مات قبل أن يتمّه، ونشر الشيخ أحمد بعضه.

4- كتاب القراءات . 5- كتاب اختلاف العلماء . 6- أحكام شرائع الإسلام: ألفه على ما أدّاه إليه اجتهاده.

7- كتاب الخفيف: وهو مختصر في الفقه. 8- كتاب التبصير في أصول الدين.

9- كتاب البسيط، وهو في الفقه، ولم يكمله.

عاش الطبري حياته طالبا ومفسرا ومؤرخا، حتى أنه لم يحفل بأسرة، شأنه شأن عمرو بن بحر الجاحظ لم يتزوج، وانشغل بالكتابة

المطلب الثالث: مصادر الطبري

سهل الطبري بمنهجه هذا على الباحث والقارئ أيضا التسلسل في التاريخ، وربط حوادثه سنة بعد أخرى، وقد دأب المؤرخون، الذين كتبوا التاريخ بعده على منواله، مثل صاحب كتاب "تجارب الأمم وتعاقب الهمم" لمؤلفه أحمد بن يعقوب (ت 421هـ)

أما صاحب كتاب "الكامل في التاريخ" عز الدين المعروف بابن الأثير (ت 630هـ) فقد قالها في مقدمة كتابه، معترفا بفضل الطبري عليه، فقد أخذ نصوصه ورواياته، بعد ترك أسانيدها، حتى نهاية ما وصل إليه، ومن بعدها سار على المنوال نفسه، أي اتخذ منهج "السنين" في كتابة التاريخ.

من يريد معرفة مصادر الطبري في كتابة تاريخه، فليقرأ كتاب "موارد الطبري" لجواد علي، الذي كان قد نشره على حلقات في مجلة "المجمع العلمي العراقي"، وقامت مجلة "العربية" التابعة لوزارة الإعلام والثقافة السعودية بجمعها، مع تحقيق وسيرة ذاتية وافية لجواد علي، ونشرتها في كتاب مستقل تحت العنوان المذكور (كتاب رقم 42 من كتب المجلة العربية)، فقد أتى جواد علي بالكتب التي اعتمدها الطبري، والتي لم يبق منها أثر. عندما نقول كتبنا ليس بالضرورة أنها مجلدات أو كتب بالمعنى المتعارف عليه، فربما بعضها لا يتجاوز صفحات، متناولا كذلك الشخصيات التي استند عليها في تاريخه. كذلك نشرت هذا الكتاب مكتبة الإسكندرية، في الذكرى المئنة لولادة جواد علي (1907-1987).

المبحث الثاني: المنهج التاريخي عند الطبري

المطلب الأول: منهجه في التفسير

أتضح مما سبق أن ابن جرير الطبري تمتع بثقافة واسعة، فهو إمام في القراءات، وإمام في الحديث، وإمام في معرفة أقوال السلف ومذاهبهم، وإمام في اللغة. ولقد جاء تفسيره للقرآن معبرا عن هذه الثقافة الواسعة، فهو ينقل بأسانيد المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته وتابعيهم من أئمة التفسير، ويذكر اختلاف القراءات، ويبين وجوه الإعراب، وهو لا يكتفي بالنقل، بل يحقق ويمحص ويعلل ويوجه ثم يرجح ما يراه قويا. ومن هنا يتضح أن الطبري لم يقف في تفسيره عند حدود التفسير بالمأثور، وإن كان إماما فيه، بل تجاوزه إلى الاجتهاد بالرأي على نحو يدل على استقلال فكره وعمق رأيه. فكان تفسيره تفسيراً أثرياً وعقلياً، يعتمد الرأي أصلاً جوهرياً في منهجه، ويجعل من المعنى الظاهر ومن المأثور منطلقاً للغوص في دقائق المعنى القرآني وأساره. وعلى ذلك يكون الإمام الطبري قد أصل علم التفسير تأصيلاً راسخاً موضوعياً يعتمد الأثر واللغة والنظر " فمنهجه يجمع بين الخطئين الأساسيين في التفسير قبله: خط التفسير بالمأثور القائم على النقل والرواية، وخط التفسير البياني القائم على اللغة والبيان، فهو يوظف الأثر واللغة والنظر، وهو خير من يمثل منهج التفسير الأثري النظري.

ويتكشف لنا عن ثلاثة أمور

1- حرص ابن جرير على العرض الشامل لقضايا التفسير، وذكر أقوال أهل العلم فيها.

2- حرصه على بيان علل هذه الأقوال وتوجيهها.

3- حرصه على الموازنة بينها، واختيار الراجح منها. فالإمام الطبري " جعل تفسيره ميداناً لما يُسمى (بالتفسير المقارن)، وصاغه على أسس الجدل والنقاش العلمي الموضوعي المنهجي، فكان يورد فيه علل وأدلة وتوجيهات كل مذهب من مذاهب

السابقين، وكلّ قول من أقوالهم. وهذا من علميته وموضوعيته، فهو أمين حتى مع الأقوال التي يخالفها ويرأها مرجوحة مردودة، فقبل أن يردّها يسجّل عليها وأدلتها.

الأسس التي بنى ابن جرير عليها تفسيره:

1- تفسير القرآن بالقرآن. 2- تفسير القرآن بالسنة النبوية. 3- عنايته بالمأثور عن السلف.

4- احترام الإجماع وعدم الخروج عنه. 5- اعتماده اللغة العربية أصلاً في التفسير

6- اتّساع مساحة الرأي في تفسير الطبري

المطلب الثاني: منهجه في السند

أكد الإمام الطبري حرصه على إسناد كل خبر إلى قائله وأنه سوف لن يسمح لحجج العقول وفكر النفوس أن تتدخل في التفسير والاستنباط، في الكتابة والتدوين أثناء جمع المادة، وما ذاك إلا حرصاً منه على جمع ما قيل كله أو جله من وجهات نظر متعددة إن كانت، وبعد ذلك محصل الموازنة والمقارنة، والاستنباط والقبول والرد لمن يريد.

ولما كان تاريخ صدر الإسلام - خصوصاً فترة الفتنة - أكثر حساسية من غيره، إذ فيه روايات أملتها عاطفة الرواة أو الاتجاهات السياسية أو اختلاف وجهات النظر والفهم، ونظراً لأن الروايات تتأثر بعوامل مختلفة كالنسيان والميول والنزعات فيصعب الجزم بدقتها وسلامتها، فإن هذا مما يجعل إبداء الرأي فيها أو إصدار حكم بشأنها يبدو معقداً للغاية.

ولهذا قام الإمام الطبري - رحمه الله - وهو يعرض وجهات النظر المختلفة لرواياته ومصادره باتباع طريقة جمع الأصول وتدوينها على صورة روايات، المسؤول عنها رجال السند أي الرواة الإخباريون.

ومن منهجه أيضاً الحياد، فهو يعرض مختلف وجهات النظر دون تحزب أو تعصب، وإن كان له رأي خاص فيظهر أحياناً في اختياره للروايات وإيراد بعضها وترك البعض الآخر، متجنباً إعطاء حكم قاطع في القضايا التي يتعرض لها، حتى أنه لا يفضل رواية على أخرى إلا نادراً.

وقد أدى به التزام هذا المنهج إلى الحرص على إيراد الروايات المختلفة للحادث أو الخبر الواحد، وعند المقابلة بين الروايات يستعمل تعبير: "واختلف في كذا" ثم يعقبه باستعراض الروايات المختلفة لرواياته كقوله: فقال بعضهم.. وقال بعضهم.. وقال هشام بن الكلبي..، وكقوله: وذكر عن فلان أنه قال.. وحدثنا فلان.. وقال آخرون.. وقال بعضهم..

المطلب الثالث: النقد التاريخي عند الطبري

النقد والمقابلة يظهر جلياً في عدد من الأخبار التي ترد في نهاية الحوليات كالوفيات والصوائف وتعيين ولاية الأقاليم وأمراء الحج. إذا كان للحادث روايات مختلفة اعتقد الإمام الطبري بوجوب ذكرها لتكتمل الرؤية عنه. لكن مع اجتهاده في تدوين كل ما يمكن تدوينه من الروايات والأقوال من الخبر الواحد، فإذا وصل إلى موضوع مطول مختلف فيه قطعه ليذكر مواضع الاختلاف مشيراً إليها فإذا ما انتهى منها عاد إلى المتن - أي إلى الموضوع الذي وقف عنه - فيمهد للكلام بإشارة تدل على استئنافه كأن يقول: "رجع الحديث إلى حديث فلان."

وما يلاحظ أن هذه الطريقة تربك القارئ، فتنسيه الحادث الأصلي، إذ تشكل عقبة أمامية أمام الوحدة الموضوعية للحادثة التاريخية، وربما كان الأفضل عرض كل رواية عرضاً متكاملاً من أولها إلى آخرها، الواحدة تلو الأخرى، وبهذا العرض الكامل تتكون لدى القارئ فكرة واضحة عن الموضوع وعن الأوجه المختلفة فيه، فيستطيع أن يوازن بين جميع الآراء، ويرجع بعضها على بعض، فتتكون بذلك لديه نظرة إيجابية عن الموضوع.

وقد راعى الإمام الطبري في ترتيب تاريخه تسلسل الحوادث، فرتبها على حسب وقوعها عاماً بعد عام منذ الهجرة إلى نهاية عام 202 هـ (914 م). فذكر في كل سنة ما وقع فيها من الأحداث التي رأى أنها تستحق الذكر.

ويكثر الإمام الطبري في تاريخه من تسجيل النصوص التاريخية من رسائل وخطب ومحاورات ولا سيما الشعر رغبة في توثيق الحوادث أو التشويق إليها . كما أنه حاول ضبط النصوص التي يرويها دون تبديل أو تغيير إلى درجة أنه كثيراً ما تبقى الكلمات والألفاظ غير العربية.

أما منهجه في إثبات المصادر ، فإنه إذا ما نقل من كتاب ما فإنه قلما يذكر عنوانيهن ، وإنما يذكر اسم مؤلفه كقوله مثلاً : "قال الواقدي" أو "قال أبو مخنف.." وإذا سمع من أحد مشافهة قال : "حدثني فلان.." ثم سلسل السند إلى مصدره الأصلي "

أما فيما يتعلق بعدالة الرواة ، فإذا كان الإمام الطبري لا يتقد بالقبود التي تمسك بها أهل الحديث بالنسبة إلى الرواة الضعفاء ، فأدخل في تاريخه أقوال الكلبي وابنه هشام والواقدي وسيف بن عمر وأبي مخنف وغيرهم من الضعفاء المتهمين بالكذب والوضع في الحديث ، فإن ذلك يرجع إلى اتباعه منهجاً معلوماً عند علماء الحديث وغيرهم حيث يذكرون ما يبلغهم ويسوقون سنده ، فالصحيح يؤخذ وغير الصحيح يعرف ويرد وفق ضوابط الشرع وقواعد الرواية..

وهكذا لم يكن الإمام الطبري بذلك العمل مغفلاً أو جاهلاً عندما يورد مئات الروايات عن الضعفاء والمتروكين ، لكنه يتبع منهجاً مرسوماً عند علماء الجرح والتعديل لا يلزم من إيراد أخبار المتروكين والضعفاء وتدوينها في كتاب من الكتب للاحتجاج بها.

ولكون الإمام الطبري من علماء الحديث فقد سار على هذا النهج في تاريخه ، فهو ليس صاحب الأخبار التي يوردها بل لها أصحاب آخرون أبرأ هو ذمته بتسميتهم ، وهؤلاء متفاوتون في الأقدار ، وأخبارهم ليست سواء في قيمتها العلمية ، ففيها الصحيح والضعيف الموضوع ، تبعاً لصدق الرواة أو كذبهم ومنزلتهم من الأمانة والعدالة والتنثيت ، ولذلك ينبغي دراسة أسانيد ومتون الروايات وفق المقاييس المعتمدة عند العلماء للوقوف على مدى صحتها من عدمه .

ومما يلاحظ أيضاً أن الطبري لم يرد الاقتصار على المصادر الموثوقة ، بل أراد أن يطلع قارئه على مختلف وجهات النظر ، فأخذ من مصادر أخرى قد لا يثق هو بأكثرها إلا أنها تفيد عند معارضتها بالأخبار القوية ؛ فقد تكمل بعض ما فيها من نقص ، أو تقوى الخبر باشتراكها مع المصادر الصحيحة في أصل الحادثة .

إن مثل الإمام الطبري ومن على شاكلته من العلماء الثقاة الأثبات في إيرادهم الأخبار الضعيفة كمثل رجال القضاء إذا أرادوا أن يبحثوا في قضية ، فإنهم يجمعون كل ما تصل إليه أيديهم من الأدلة والشواهد المتصلة بها مع علمهم بتقاهة بعضها أو ضعفه اعتماداً منهم على أن كل شيء سيقدر بقدره .

وتحسن الإشارة إلى أن اتساع صدور أئمة السنة من أمثال الإمام الطبري لإيراد أخبار المخالفين من الشيعة وغيرهم دليل على فهمهم وأمانتهم ورغبتهم في تمكين قرائهم من أن يطلعوا على كل ما في الأمر ، واثقين من أن القارئ اللبيب المطلع لا يفوته بأن العلم مثل أبي مخنف وابن الكلبي وغيرهم هم موضع تهمة فيما يتصل بالقضايا التي يتعصبون لها ، مما ينبغي معه التحري والتنثيت لاستخلاص الحقائق المختلطة بالإشاعات والمفتريات.

الخاتمة:

إن المؤرخ الذي يقف على خبر تاريخي في مصدر من المصادر أو في وثيقة لا يكتفي بهذا الخبر من خلال مصدر واحد، وإنما يجب عليه استقصاء مصادر الخبر المتنوعة، وهو يتطلب عدم الاكتفاء بما يبين أو يعثر عليه بأيسر جهد، بل يتطلب الاستقصاء البعيد والتفتيش الدقيق في كل ركن وزاوية أملاً في أن ينكشف شيء جديد، وهنا يشترك المؤرخون والمحدثون في تتبع المصادر واستقصاء أسانيد ومخارج الخبر عن طريق مصادر كثيرة.

إن فهم الصناعة التاريخية، ووضع الضوابط فيمن يتصدى للبحث أو الكتابة التاريخية، هي في الحقيقة حماية للمتخصصين، وصيانة للتاريخ من المنتحلين، الذين لا يراعون القواعد النقدية عند كتاباتهم التاريخية، فقد أصبح الكلام عن التاريخ وتقييمه مباحاً لمن هب ودب، وأخذ يترأى للبعض أنه من أسهل العلوم، وأن بإمكان كل شخص أن يكتب ويتخصص فيه، حتى إذا سألت طالباً في قسم التاريخ عن سبب اختياره للدراسة في هذا الحقل أجابك بأنه يبحث عن دراسة سهلة، والسبب

أننا لم نضع القواعد العلمية ونطبقها في دراساتنا التاريخية، بحيث أصبحت الرواية التاريخية أقرب إلى الرواية الأدبية في شكلها العام، فكل من يملك قلماً سيالاً وأسلوباً عالياً في التعبير هو المؤرخ الناجح.

المصادر والمراجع:

* علي بكر الحسن، الطبري ومنهجه في التأريخ، دار غريب للطباعة والنشر، مصر، 2004

* تمام كمال موسى الشاعر، منهج الامام ابن جرير الطبري في الترجيح بين أقوال المفسرين، مذكرة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2004.

* د. محمد محزون ، منهج الطبري في تاريخه، مقال الكتروني، الموقع الالكتروني اسلام

ويب، <https://www.islamweb.net/ar/>، قطر، 2002

* أحمد صبحي منصور، منهج الطبري في تاريخه، مقال الكتروني، الموقع الالكتروني الموقع المتمدن،

العراق، 2009، <https://www.ahewar.org/debat/nr.asp?nm=1>

* رشيد الخيون، الطبري في تاريخه، مقال لكتروني، الموقع الالكتروني العرب، <https://alarab->

العراق، 2018، app.cdn.ampproject.org/c/s/alarab.app/?amp